الهجرة غير الشرعية: قراءة أنثروبولوجية سيكوباثولوجية
(فرنسا نموذجا).

د. بوعون السعيد
د. يوسف عدوان
. جامعة الحاج لخضر. باتنة (الجزائر)

ملخص:

في هذا المقال الاستكشافي، نحاول من خلال مجموعة من الملاحظات بالمشاركة، في الجانب الأول التركيز على استجلاء الآثار النفسية والعقلية التي تنتجها ظاهرة الهجرة غير الشرعية على الشباب المتواجدين على الأراضي الفرنسية، وذلك من حيث اعتبار هذه الآثار ردّ فعل للتغيرات المفاجئة في حياة هؤلاء الشباب من جهة، ثمّ ردّ فعل ناتج عن غياب الشعور بالأمن لديهم من جهة ثانية. و من جهة ثالثة يتضمّن المقال في بعض ثناياه عرض أهمّ الوسائل الوقائية وأساليب العناية النفسية التي يتمّ توفيرها لهؤلاء الشباب في المراكز التي تخصّص لاستقبالهم و تلك التي يتمّ توفيرها لهم داخل الجمعيات التي تدافع عنهم، وذلك دائما على مستوى التراب الفرنسي نموذجا.

Resumé

Ce travail fait écho à une longue expérience de terrain avec des personnes en situation d'immigration clandisitine. Dans cet article, les auteurs proposent une revue d'études et de recherches dont l'objet principal était la stuation migratoire et notamment les différentes facettes tant anthropologique que psychapathologique qui caractérisent le migrant. La pathologie du sujet migrant diffère de celle citoyen appartenant à la culture du pays d'accueil et même de celle du migrant vivant de longue date dans ce pays d'accueil.

مقدمة:

بين مشروع انطلاقة الهجرة كمشروع حياة وبين الحصول على الأوراق الإدارية التي تسمح لصاحب المشروع بالإقامة والتنقل بحرية في البلد المضيف، بين هذه وتلك عالم من المعاناة والإحباطات والآلام, وأشكال من الحرمان والفشل... يبدأ المشوار بالتخطيط (وطبعا هنا لكل فرد خطته), ويبدأ التحضير بأساليب متنوعة مثل توفير بعض المال أو البحث عن تأشيرة، وهنا نجد من الأفراد من يقدم مبالغ خيالية للحصول على تأشيرة من أجل الدخول إلى الأراضي الأوروبية ونجد منهم من يحاول تقديم طلب الحصول على تأشيرة سياحية، كما نجد منهم من يبحث عن زواج أبيض يفتح له أبواب الحصول على بطاقة الإقامة ومن ثم فرص العمل، بل نجد منهم من يختفي وراء الدراسات العليا المتخصّصة – والتي قد يدوم فيها عشرات السنوات– ليبقى محتفظا ببطاقته كطالب, كما نجد منهم حتى من يختفي وراء طلب اللجوء السياسي. وهذا البحث هو خلاصة تسجيل لكثير من الملاحظات العلمية والقراءات المتخصصة جمعت في جنوب فرنسا من خلال بعض الروابط والصلات واللقاءات مع مجموعة من الشباب ممن تطلق عليهم تسمية "السريون".

الإشكالية:

إنّ الإشكالية المطروحة والمتناولة بالتحليل والمناقشة في هذا البحث, هي إشكالية المهاجر السري في الأراضي الفرنسية, وما يتبع هذه الإشكالية من مظاهر نفسية سيكوباثولوجية وأنثروبولوجية. إن سيكولوجية المهاجر السري إذا ما حصرنا تعريفه فيمن يحاول أن يتسلل خفية وبمختلف الطرق التي تتاح له، أو فيمن يستغل حصوله على تأشيرة سياحية ثم يقرر بعدها المكوث في البلد المضيف دون ترخيص بالإقامة , تتضح لدينا بعض الخصائص النفسية لدى هذا المهاجر المغامر والتي سوف نحاول استكشافها لاحقا بشيء من التفصيل. ولعل أهم الخصائص التي تميز هذه الفئة من المهاجرين هو أن غالبية هؤلاء المهاجرين ينتمون إلى جيل الشباب وهم ذكور غير متزوجون، رغم وجود فئات أخرى من النساء ومن الكهول والشيوخ وحتى من المتزوجين خاصة في السنوات الأخيرة، بل إنّ من هؤلاء من يتخلّى عن مكانة مرموقة في بلده الأصلي(طبيب، جراح, أستاذ، موظف سامي، أو تاجر ناجح...) ليغامر في اتجاه أرض لا تريده وإلى أقوام يرفضونه... هذا بالإضافة إلى خاصية أخرى تميز هذه الفئة من الشباب المهاجر وهي الطموح الذي يمتزج في كثير من الأحيان بالتهور والمغامرة والرغبة في تغيير أحواله والبحث عن تحسين ظروفه المعيشية وظروف معيشة أهله ... مع أنّ هذه الحالة بعينها تصطدم بمبدأ يناقض جوهرها في حدّ ذاته... إذ أنه من ناحية هناك البحث عن تحسين الظروف المعيشية والسعي إلى حياة أفضل ومن ناحية أخرى التورط في مشكلات مالية وربما توريط الأهل أيضا فيما لا طاقة لهم به، والهدف القيام بمغامرة عواقبها الوخيمة محسومة سلفا, إذ تنقضي السنوات في الخوف والتهرب والسرية... بحثا عن الحرية ثم يتحول الأمر إلى فرار من القانون ومروق عنه... وبدل البحث عن حياة أفضل يأتي الدخول في دوامة العيش في مراكز الاستقبال, وهي دوامة قد تستمر سنوات أو تستغرق العمر كله.

البعد التاريخي للهجرة غير الشرعية في فرنسا:

إنّ لمحة موجزة عن التاريخ تساعدنا على فهم الأبعاد النفسية و الاجتماعية لواقع المهاجر السري... ولكن يجب التسليم بأن هناك نوع من الخلط في التسميات الوصفية التي يوسم بها هؤلاء الأشخاص, فحين نقول بأن فلان هو"من دون وثائق رسمية **" un sans papiers"** فهذا وصف غير صحيح لأن أغلب هؤلاء –إن لم نقل كلهم يملكون– أوراقا "أوراقهم الأصلية من البلد الأصلي" حتى وإن قام بعضهم بإتلاف هذه الأوراق في سلوك رمزي تعبيرا عن رفض كل ما يوحي بالانتماء للبلد الأصلي والذي– حسب تعبيره– أهانه وأذله وحطم آماله بالسجن أو الفقر أو الظلم، أو قاموا بإتلافها في إطار عملية محسوبة لمغالطة السلطات، وإفشال كل محاولة تبذل لإعادتهم نحو البلد الأصلي – باعتبار أن القانون يمنع السلطات من إرسال أي شخص إلى بلد غير بلده الأصلي – ما لم تتأكد السلطات فعلا بأنه بلده الأصلي. ومصطلح "دون وثائق" مصطلح حديث الاستعمال، ولكنه بدأ يأخذ طابع الشمول بعد التسعينات خاصة مع قوانين (باسكوا) **Pasqua** وزير داخلية فرنسا في (1993) الذي ضيق وقيد حقوق الإقامة للأجانب. غير أن ما فسح مجال استعمال هذه التسمية هو أن بعض الفئات التي مستها قوانين (باسكوا) بقيت في وضعية بينية: لا هم شرعيون يتمتعون بوثائق الإقامة الرسمية ولا السلطات قادرة على طردهم **"Ni régularisable ni expulsable"**. وحتى مع قانون (شوفانمان) **Chevènement** في (1997) الذي منح الفرصة لأكثر من (146000) مهاجر غير شرعي لتسوية وضعيته من أصل (179000) مهاجر قدموا ملفاتهم للإدارة الفرنسية في إطار هذا المشروع، إلا أن الملفات التي قدمت ولم تحظ بالقبول تحول أصحابها وفق منطق الواقع إلى مهاجرين سريين بعد أن تم تجريدهم من هوياتهم ومن تحديد أصولهم.إن مفهوم "المهاجر السري من دون وثائق" هو مفهوم وصفي في أصله لكنه تحول مع مرور الوقت إلى مفهوم مميز للهوية...وهذا المفهوم كان يهدف في الأصل إلى وصف وضعية شخص ما, محروم من بطاقة إقامة في بلد غير بلده.. ليأخذ فيما بعداً اجتماعيا وسياسيا يرتبط بمفهوم الحرمان وما يعج به من مفاهيم إيجابية ترتبط بالمقاومة والمواجهة والثورة "المحرومين من السراويل **Sans Culottes"** إبان الثورة الفرنسية وهم الذين أسقطوا

الحكم الملكي القائم آنذاك أو حركة "المحرومين من الأرض **sans terres**" في البرازيل أو "المحرومين من السكن **Sans Abris**

" في فرنسا والذين ما زالوا يناضلون في سبيل حقوقهم.إن فئة المحرومين من الوثائق باحتكاكهم مع هذه الفئات المذكورة اكتسبوا نوعا من الغطاء الرمزي الإيجابي, انطلاقا من أنّ المحرومين من الأرض في البرازيل أوالمحرومين من السكن في فرنسا هم من المظلومين وهم أصحاب حق لكنهم حرموا من هذا الحق.. وهكذا يكون المحرومون من الوثائق هم من المحرومين من حق من حقوقهم.إننا نعرف جميعا أن الهجرة والتنقل من بلد إلى آخر ومن أرض إلى أخرى واقع تاريخي وبشري... وأن الإقامة في بلد أجنبي حقيقة عرفتها كل المجتمعات والبيئات والثقافات وفي كل الحقب. وهنا تجدر الإشارة أنه حتى إلى بداية القرن الماضي – وعلى الأرض الفرنسية – لم تكن الهجرة غير الشرعية مشكلة, خاصة بعد الحرب العالمية الثانية أين كانت الحاجة لليد العاملة حاجة ماسة طغت على باقي الاهتمامات الأخرى, وكان الشخص المحروم من وثائق الهوية غير مطلوب ولا مبحوث عنه.. وبقي الأمر كذلك حتى أواسط السبعينات، حيث وصلت نسبة تسوية وضعية الإقامة إلى حوالي (53% عام 1960) بينما قفزت إلى (86% عام 1968). إن مصطلح "المهاجر السري" لا يزال استعماله متداولا حتى اليوم... إلا أن المصطلح الأكثر شيوعا الآن هو مصطلح "المحروم من الوثائق"، إذ أن الوثائق خاصة منها وثيقة رخصة العمل إلى عهد السبعينات كانت ضرورية للحصول على بطاقة الإقامة، ولذلك كانت أول أشكال النضال التي قام بها المحرومون من الوثائق تعود إلى هذه السنوات،وتمثلت خاصة في تلك الإضرابات عن الطعام التي قامت بها هذه الفئة في (1970). ويبدو أن ظهور مصطلح المحرومون من الوثائق يعود إلى هذه الفترة. وفي عام (1980) برز أول تنظيم يمثل هذه الفئة وهو التنظيم التركي للمحرومين من الوثائق. ومن ثم بدأ استعمال المصطلح حتى في النقاشات السياسية، وذلك خاصة حين تم القيام بحوصلة عملية تسوية أوضاع هذه الفئة في (1981). ولكن شيوع استعمال المصطلح لم يبدأ بشكل فعلي إلا في السنوات (1990) وذلك مع الإضرابات الكبرى عن الطعام التي قامت بها فئة المحرومين من الوثائق في سنوات(1991, 1992, 1996, 1998) وما تلاه من بروز الجمعيات المدافعة عن المحرومين من الوثائق **Collectifs des sans Papiers"**...

البعد الاجتماعي للمهاجر غير الشرعي في فرنسا:

يبدو من خلال تحليل بعض الأحداث السياسية أن مصطلح "المحرومون من الوثائق" قد فرض نفسه في النقاش السياسي حول الهجرة وحول إشكاليات التسوية وحظي بتبني مناضلي حقوق الإنسان، والمدافعين عن هذه الفئة له... لأن المشكل في نظر مناضلي حقوق الإنسان ليس مشكلا سياسيا بحتا بل هو مشكل يرتبط خاصة بقضية تحديد المفاهيم ومدى غلبة مفهوم على آخر في النقاشات السياسية...ولأن الأمر في نظر هؤلاء المناضلين يتعلق بأشخاص تجب لهم حقوق إنسانية بصرف النظر عن أصولهم، وأن الإدارة هي التي حرمتهم من هذه الحقوق بحرمانهم من وثائق هي من حق لهم من منطلق إنساني... وفي الأخير يمكن فقط الإشارة إلى أن أغلب الدراسات التي تتناول هذه الظاهرة في فرنسا تعتمد على ما تقدمه على وجه الخصوص المؤسسات الرسمية الحكومية مثل المعهد الوطني للإحصاء **INSEE** وديوان الهجرة الدولية **OMI** والديوان الفرنسي لحماية اللاجئين **OFPRA**.

البعد الأنثروبولوجي التحليلي:

على المستوى الأنثربولوجي التحليلي يمكن ملاحظة سيادة انطباعين متناقضين لدى فئتين من الفرنسيين: الأولى يلاحظ عليها انطباع يقوم على نوع من الشعور بالإثم, إثم الاستعمار الذي أستغل شعوب عالم الجنوب... وإثم الغرب الذي لا يزال يستغل ثروات وخيرات الشعوب المقهورة ومن أجل ذلك يدعم ويؤيد أنظمة فاشلة تقوم على القهر

والإذلال...بينما الفئة الثانية هي تلك التي يحكمها انطباع العزة والرغبة في الانتقام, والشعور بالتفوق, تفوق الغرب وقدرته، ومن ثمة حقه في استغلال هذا الجنوب المتكاسل المتخاذل, جنوب التخلف والآفات. وطبعا تلك الرغبة في الانتقام مثلا ولدت على اعتبار أن هذا الجنوب هو الذي رفض وقاوم وصاية رجل الشمال و استعماره, بينما هاهو اليوم يدق أبوابه ليدخل مستجديا الحرية والرزق, حرية سلبها إياه أبناء جلدته ورزق ابتزه منه إخوة الدين والوطن...إن هذه الانطباعات عند فئات المجتمع الفرنسي هي حقائق وهي ما يعكس ما يلاقيه المهاجر بصفة عامة والمهاجر السري بصفة خاصة, فهو من جهة يجد الاستقبال والدعم والعناية (صحية, اجتماعية, وإدارية...)، ومن جهة أخرى – وفي نفس المجتمع– يجد النبذ والنفور والعدائية من فئات معينة (تمثلها هناك التيارات اليمينية المتطرفة...) بحيث قد يحدث صدام بين هاتين الفئتين بسبب المهاجر من مدافع عنه ومعتد عليه...

البعد السيكوباثولوجي:

رغم قدم ظاهرة الهجرة في اتجاه فرنسا إلا أن الدراسات التي تمت في ميدان تناول الاضطرابات النفسية الناشئة عنها تعتبر نادرة, وهي في أغلبيتها كانت تهتم بمظاهر الاضطراب النفسي لدى المهاجرين البولونيين على الأرض الفرنسية. وهذه الأعمال والدراسات تعتبر ذات طابع تاريخي واجتماعي وكانت تركّز خاصة على البولونيين المهاجرين في بداية القرن 20 أوفي فترة مابين الحربين العالميتين. ومن هذه الدراسات يمكن ذكر دراسة **Ponti** (1983) **Peschanski**, **Robert** (1991).وعموما فإن الدراسات النفسية المرضية التي أجريت بفرنسا والتي وجهت اهتمامها نحو هذه الفئة من المهاجرين, تبقى نادرة وفقيرة.. ومن بين هذه الدراسات يمكن ذكر دراسة **Hanna Devarenne-Megas** سنة 1993 والتي بينت تأثير استئصال الهجرة والظروف الوجودية الصعبة للمهاجرين على بروز الاضطراب النفسي والعقلي وأن كثير من هؤلاء المهاجرين حصلوا على رعاية نفسية وطبية وعقلية في مصحات مختصة...ونذكر في مجال سيكولوجية المهاجر المغاربي عدة مهتمين منهم: (جليل بناني, فتحي بن سلامة, طاهر بن جلون, ماري روز مورو, طوبي ناتان), وغيرهم.أما فيما تعلق بالدراسات العالمية فيمكن ذكر دراسة **Kino** في عام 1951الذي أهتم بفئة الشباب المهاجر التي أستقر في (مصحة ميدل وود **Middle Wood Hospital**) ببريطانيا ومن هؤلاء المهاجرين تمكن **Kino** من تمييز نوع الاضطراب الذهاني **désordre psychotique** والذي من ميزاته حالات من الاستثارة (هياج) وقلق مصحوب بخلط وتشويش **Confusion** ونزوع نحو الشك والحذر من المحيط...بعضهم يعاني أيضا من هلوسة بصرية وسمعية ولهم أفكار هذيانية اضطهادية مع توجهات وأفكار انتحارية **Kino F.F. (1951) Aliens paranoid reactions, *Journal of Mental Science*, 97, pp. 589-...594.)**

كثير هي الأعمال التي تمت في كثير من البلدان والتي تناولت ظاهرة الأخيرة وعلاقتها بالاضطرابات النفسية والعقلية... ففي 1912 بيّن **Pollok** في دراسة قام بها في مدينة نيويورك بأن الاضطراب النفسي والعقلي هو أكثر شيوعا في أوساط المهاجرين منه لدى السكان الأصليين للمدينة... وفي 1932 بيّن أيضا العالم **Odegaard** بأن النرويجيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية **USA** هم أكثر إصابة بالاضطرابات النفسية مقارنة بالنرويجيين الذين يعيشون في النرويج...دراسات أخرى حديثة بينت أيضا أثر الهجرة والاستئصال من البلد الأصلي على بروز آثار الاضطراب العقلي لدى هؤلاء وان الاضطرابات العقلية هي أكثر شيوعا لدى المهاجرين إذا ما قارناهم بإخوانهم المستقرين في أرض الوطن...ومن هذه الدراسات يمكن ذكر دراسات **Sigal** و **Gasry** ,1975 **Berry** و **Kim** ,1987 **Toussignant** في 1991, **Aroian**1993...إلا ان كل الدراسات يتفق عليها المختصون بأنها قاصرة و يعوزها كثير من الدقة والموضوعية .ففي 1977 قام العالم **Murphy** (**Murphy H.B.M. (1977) Migration, culture and mental health, *Psychological Medicine*, 7, pp. 677-684.**) بالتمييز بين الباحثين الذين

قدموا فرضيات عن إستعدادية المهاجرين للإصابة بالاضطراب العقلي وبين الآخرين الـذين قـدموا فرضـيات تعيـد الاضطراب العقلي الذي يعاني منه المهاجر إلى الضغوط التي سببتها ظاهرة الاستئصال ...هذه التناقضات تفسر سببية الاضطراب العقلي لدى المهاجر تعود في جزئها الأكبر في الفروق بين نتائج الدراسات العيادية والأنثروبولوجية والتي في كثير من الأحيان يشوبه كثير من النقص في الجدية...يمكن الإشارة أيضا إلى أن في الدراسات الحالية يظهر كثيـر من التركيز على الجوانب الفطرية والمكتسبة. أي كيف تكون هذه الاضطرابات ناتجة عن استعداد نفسـي أي فطـري (فالذي يفكر في الهجرة ويركب كثير من المصاعب ليترك أهله وبلده يعاني من إستعدادية نفسية للإصابة بينمـا الفـرد السوي الخالي من هذه الاستعدادية يرفض الهجرة حتى ولو أتيحت له الفرص...) وكيف تكون لدى البعض ناتجة عـن تأثير ثقافي اجتماعي ظرفي (لا دخل للاستعدادية فيه). ولقد ظهر نموذج جديد لا يزال في طور النمو يفضـل اعتبـار المهاجر ككائن كلّي (بيو–نفسي–اجتماعي) وهو بذلك يرفض كل الدراسات التبسيطية والخطية التي تعتبر عاملا واحدا مهما كان معزولا سببا للاضطراب النفسي لدى هـذا الأخيـر... ويـولي هـذا التوجـه المتطـور **Goldberg et** (1992**Huxley**) ***social model,* Tavistock Routledge Eds., Londres (UK).** مكانة هامة لنمـوذج جديـد يحـل محـل النموذج التقليدي والذي يمثل نموذجا متعدد الأبعاد يتناول الاضطراب في أبعاده المختلفة حتى الظاهرياتية والوجودية...

فبالنسبة لفرنسا يعتبر المتخصصون أن الأبحاث التي تمت في ميدان سيكوباثولوجية المهاجر أبحاث ذات قيمـة كيفية **qualitative** عكس ما تم في الولايات المتحدة وفي كندا والتي اهتمت أكثر بالجانب الكمي **Quantitatives**. نقطة أخرى هامة فيما يتعلق بهذا المجال من الدراسات هو أن هذه الأخيرة تناولت ظاهرة الهجرة من زاوية الدراسـة الاجتماعية واهتمت فقط بالحياة الاجتماعية للمهاجر في البلد المضيف.. بينما المواضيع الذاتية والنفسية فلم تتناولها إلا النادر من الدراسات والتي يمكن ذكر بعض منها مثل دراسـات كينـو Kino 1951, كوشـران **Cochrane** 1971, ليبرمان Lieberman 1978 وهيتش Hitch و راك Rack 1980 ودراسـات وول Wool 1983.هـذه الدراسـات ودراسات أخرى طغى عليها محوران أساسيان :

* الأول هو كيفية قياس الظاهر والمنهجيات التي يجب استخدامها أي كيف يمكن تقييم الأعراض المرضية لدى المصاب ذو الخلفيات المخالفة للإطار المرجعي للبلد المضيف.

* وأما المحور الثاني فقد تعرض إلى مفهوم السببية من حيث محاولة البحث عن عوامل الخطر لدى المهاجرين ما دام هناك فروقات في ميدان الصحة العقلية والاضطراب العقلي بين السكان الأصليين و بين المهاجرين...ففي دراسة العـالم كوشـران **Cochrane 1971** (**Cochrane R. (1971) Mental illness in immigrants to England and Wales : An analysis of mental hospital admissions, *Social Psychiatry*, 12 (1), pp. 25-35.**) النفسية للاضطراب المرتبط بعملية الهجرة قام بتحليل المعطيات المتعلقة بدخول هؤلاء المهاجرين فـي المصحات العقلية في فترة سنة واحدة 1971. فحسب المعطيات التي حصل عليها وجد المهاجرين الذين دخلـوا هـذه المصحات يتميزون خاصة بأعراض ذهانية مثل الفصام والبرانويا... وبصفة عامة فإن النساء المهاجرات هـن أكثـر إصابة من الرجال وهن يتميزن بأعراض متنوعة إلا أن الدراسة ذاتها تحدثت عن تعرض الرجال لاضطرابات مرتبطة بالإدمان على الكحول مما يعرضهم للذهانات الكحولية...وفي دراسة ل بورفيل **Burvill** 1982 فقد كشف عن نسـبة عالية من العصابات لدى النساء المهاجرات بينما عند الرجال لاحظ نسبة عالية من الإدمان على الكحـول... وكشـف موستوين **Mostwin 1976** في دراساته العيادية صحة الفرضية القائلة بأن الاستئصال الذي يعاني منه المهاجر هـو أصل ذلك الحصر **Anxiété** الذي يسبب صعوبات متعددة في تطوير العلاقات الاجتماعية بين المهاجر ومحيطـه... **Wood M. (1988) Revue de la littérature sur la santé mentale des migrants, Santé Culture**

Health, 5 (1), pp. 37-93. وفي دراسة **Hich et Rack** 1980 فقد لاحظ هذين العالمين أن هناك نسبة عالية من المقيمين في المصحات العقلية لدى المهاجرين منهم لدى السكان الأصليين.

خاصية الفجوة بين–ثقافية بين المهاجر والمجتمع الفرنسي:

إن كثير من الدراسات التي تمت في مجال الاضطرابات العقلية لدى المهاجرين تمت في أوساط مهاجرة قادمة من أوروبا الشرقية (خاصة من بولونيا وايطاليا). ورغم تقارب الثقافات بين هذه المجتمعات والمجتمع الفرنسي إلا أن أثر الاستئصال الثقافي **Déracinement** في ظهور الاضطرابات العقلية ثبت من خلال الدراسات التي تمت في هذا المجال. ورغم أن المجتمع الفرنسي لا يطرح بالنسبة للمغاربي إشكالية كما قد يطرحها للإيراني أو الأفغاني أو الصيني أو الهندي مثلا إلا أن الفجوة في القيم والمعايير و السلوكات الاجتماعية تشكل للبعض نوع من الصدمة الثقافية وللبعض الآخر ضرورة "إعادة التعلم الوجودي" **"Réapprentissage existentiel"** خاصة لبعض الفئات...هذه الخاصية تعكسها بعض مظاهر الحياة العامة وكيفية تنظيمها ومظاهر الحياة الأسرية والعلاقات بين الأفراد ومكانة كل واحد منهم خاصة فيما تعلق بعلاقة الرجل بالمرأة وعلاقة الأطفال بالوالدين إضافة إلى باقي المعايير الدينية والأخلاقية.. ففي بعض الأحيان يبدو على النساء قدرات أكبر للتوافق مع المجتمع منه عند الرجال بينما يظهر العكس في بعض الأحيان...وفيما يلي أهم المظاهر السيكوباثولوجية المرتبطة بالهجرة والتي أمكن ملاحظتها:

اضطراب الشخصية:

إن الفجوات في التوافق مع المجتمع والحفاظ على الانتماء دليل على سوء التوافق النفسي.. . إن المكانة الاجتماعية التي بإمكان المهاجر الحصول عليها قد تكون سببا في زعزعة التوازن النفسي. فبعض المهاجرين السريين كانوا أصحاب مكانة اجتماعية محترمة (مدراء, أطباء, أساتذة...) فيجد نفسه بعد المغامرة مرمي في مراكز الاستقبال مع المهمشين والمصابين بشتى أنواع الاضطرابات العقلية وإذا تحصل على عمل فهو عمل يعافه الفرنسيون وأصحاب الوثائق من المهاجرين ويتنازل عن أبسط الحقوق مثل الحصول على الأجر القاعدي أو عقد عمل يحمي حقوقه...إن هذه الإشكالية المطروحة ذات علاقة مع سيكولوجية التجنب **Psychologie de l'évitement**, والتي تمتلك وظيفة في تدعيم نمط السلوك التهربي **Comportement de fuite** فحين نتجنب مشكلة ما نقتنع في عمق ذواتنا بأن سلوكنا الهروبي جنبنا كثير من المشكلات, فالسلوك الهروبي لدى الخوافي مثلا يدعم لديه تأصل السلوك التجنبي لأنه يعتقد أن المخاطر المحدقة يتم تجنبها بفضل هذا السلوك.. والسلوك الهروبي لدى المهاجر السري الفاشل تصبح السلوكات الهروبية وهي في حد ذاتها سلوكات تدعمها وتغرسها ظروف الحياة اليومية...إن المعايير التي وضعها **DSM4** لتحديد الشخصية الهروبية أو الاجتنابية **Personnalité évitante** تعطينا بعض الضوء في هذا المجال. فمن هذه المعايير هو أن الشخص يتجنب كل نشاط اجتماعي أو مهني يمكن أن يكون مدخل لانتقادات أو استنكار أو نبذ... ومنها أيضا شعوره بالدونية تجاه الآخرين.. إن هذه السلوكات لا تأتي بعفوية ودون سابق تحضير , فهي سلوكات ناتجة من عملية نفسية مغروسة في زمن ديمومي (إي غير متقطع)لأن المهاجر السري دخل في مشوار حيوي لذاته ولأهله.. مشوار كان فيه الاستثمار النفسي والعقلي والعاطفي في أوج مستواه..

رهاب العودة:

المغامر الناجح قد يتكيف تكيفا مقبولا... بينما يدخل المغامر الفاشل في دوامة تناقض الرغبات... فبقاؤه في بلد لا يريده يفرض عليه التسليم بحقيقة مرة هي الاكتفاء بعيش البؤس وحياة التقشف والتهرب والسرية وعودة تفرض عليه التسليم بحقيقة أخرى أشد مرارة هي الاعتراف بالفشل أمام الأهل والأصدقاء وهو أمر غير مقبول لدى شخص كبرت أناه وتشكلت شخصيته على أسس البحث عن النجاح والمغامرة وجرأة البحث المتطرف عن التغيير وتكونت صورته

الاجتماعية على أساس حتمية النجاح فالبقاء مرادف للبؤس والذلة والتهرب والبحث المتواصل عن الزوايا المظلمة والهروب من زوايا الضوء حتى لا تدركه بصيرة ولا تراه عين. إن العودة مرادف للاعتراف بالفشل والانتكاس والاكتفاء بالشعور الدائم بالإحباط...إن هذه المشاعر الأليمة والعذاب النفسي والاجتماعي المتواصل لدى المهاجر السري تؤثر على بناء النفسي وتزعزع كل الأسس التي ترتكز عليها شخصيته ويتكون لديه نمط سلوكي مضمونه التهرب والتجنب... تهرب علائقي, فلا يبني علاقته إلا مع من هم في وضعيته ويتحاشى كل معارفه وكل ما في إمكانه أن يعكس له صورته ويحيي أشباح الماضي ويشعل أنواراً تفضح حقيقته الآنية...إن هذا النمط السلوكي الهروبي يأخذ بعده السيكولوجي المرضي حين يأخذ الفرد منعرجات خطيرة توصله إلى سلوكيات الانتحار المزيف " **Pseudo Suicide"** من خلال دخوله في عوالم الإدمان والكحول والدعارة والجريمة... فكثير من المهاجرين السريين الذين لم تحالفهم ظروف الإقامة إلى الوصول إلى مرامهم ولم تكن القوة النفسية الكافية لتحمل إحباط الفشل والعودة إلى نقطة البداية دون مال ولا شهادات ليجدوا أنفسهم ضحايا.

الحنين:

إن ما يظهر على السطح في أول علاقتنا مع الظاهرة هي بروز كثير من المظاهر النفسية التي تتفاعل ومع تفاقم الضغوط فتتحول إلى عوامل منتجة للشذوذ والاضطرابات...من هذه المظاهر ظاهرة الحنين والتي تتلازم مع ظاهرة الحداد كظاهرة نفسية تتموضع في حدود بين الشذوذ والسواء.الحنين **Nostalgie** هو (ألم العودة: **Algie** ألم, **Nostos** عودة) ويعود استعمال هذه الكلمة المركبة إلى عام 1688 في أعمال الطبيب السويسري الذي أستعملها ليصف اضطراب يعاني منه جنود سويسريون كانوا يعانون من كآبة حادة تم شفاؤهم بمجرد عودتهم إلى ارض الوطن... لكن الأعمال الروائية فيما بعد طغت على استعمال الكلمة لتصبح أكثر تعبيرا على شعور نفسي منه على الاضطرابات...فالحنين لدى المهاجر السري كما الحال لدى بعض الفئات كالجنود وبعض العمال ممن ليس لهم حرية تقرير لحظة العودة إلى الأرض... يختلط فيه كثير من المظاهر العاطفية والمعرفية **Cognitif**. فمن الناحية المعرفية هناك البعد الذاكري من حيث الذاكرة معبأة بمثل هذه اللحظات لتعيد الماضي كما كان وكما لا يمكن استحضاره ..فالذاكرة تصبح فضاء سيكولوجي لمواضيع مفقودة ويستحيل استرجاعها... يرتبط بهذا المظهر المعرفي بُعد عاطفي مشحون بكل الآلام, ألم فقدان ما هو عزيز وضياع ما هو غالي... يغطيه نوع من الشعور بتلك القدرة على تذكره والتلذذ به في خليط من الألم, ألم الفقدان ولذة الاسترجاع والتذكر (**Werman** 1977), هذا الشعور يتحول إلى دينامية توفيقية نفسية توليفية **Synthétisé**, إلى إطار فضائي وزماني لمواجهة الشعور بالضياع ليصبح الشعور بالحنين ذا وظيفة سيكولوجية فيما يُعرف ب"الذاكرة الشاشة **Mémoire Ecran** أو الذاكرة الحاجبة والتي ترتبط بالحاجة للمحافظة على توازن الأنا المثالي **Moi Idéal (Kaplan 1987)**. فالحنين في ارتباط وثيق بالذاكرة وعمل الذاكرة وبقدرته على تحديد هويته من خلال مرجعية الماضي.. فمن الناحية المعرفية يبقى نشاط الذاكرة في هذا الإطار مرتبط بالذكريات المسترجعة من خلال مثيرات حسية شعورية ذات بعد زماني فبعض المأكولات والروائح تعيدنا إلى زمن فضائي مرتبط بذكريات محددة **Castelnuovo** 1978 إن الحنين قد يكون نقطة بداية في بعض الحالات وخط توازن في حالات أخرى مع حالات الاكتئاب السوداوي في أخطر مظاهره أو في أبسطها... وهي ترتبط في كثير من الأحيان مع حالات حداد غير منتهية والذي يتميز خاصة باستحالة الاستغناء عن الموضوع المفقود والتنازل عنه استحالة استثمار مواضيع نفسية أخرى... فنحن هنا أمام ظاهرة توقف عملية الحداد كعملية ضرورية للتوازن وبقاء خيط الارتباط بين الموضوع المفقود والأنا المثالي.. فهذه العلاقة مرغوبة في حد ذاتها وليس هناك موضوع آخر بإمكانه أن يحل كل الموضوع المفقود ...وعلى حد تعبير **Geahchan** 1968 تضيف ظاهرة الحنين كظاهرة نفسية إلى الاكتئاب وفقدان الموضوع شعور فقدان جزء من الأنا المثالي **Le Moi Ideal**. **Tousignant Michel (1992) La santé**

mentale des migrants : analyse de son contexte social et longitudinal, Santé Mentale Québec, 17 (2), pp. 35-45.

الجنوح:

إن أهم ما يمكن ربطه بالاضطرابات هو ما يعرف في الخطاب السياسي والجمعي الفرنسي بالاندماج وبالأخص اندماج المهاجرين داخل المجتمع الفرنسي. وهو مطلب موجه للمهاجر باعتباره ذو ثقافة وقيم ومعايير مختلفة وعليه أن يقوم بالعمل الاندماجي داخل المجتمع المضيف. إذا ما سلمنا بأن الاندماج لا يفرض ولا يسن بالقوانين والمراسيم. بل هي عملية نفسية اجتماعية وثقافية طويلة وتحتاج إلى مشاركة الآخرين في مشروع حياتي واحد وقيم مشتركة وأن يكون هناك اتفاق تجميع ومحو الفروق بين الأشخاص. والاندماج كما يعرفه البعض هو عملية فردية فالفرد هو الذي يندمج في المجموعة وليس العكس من أجل الحفاظ على التناسق الاجتماعي والذي يرتكز على أسس ثلاثة وهي كما يعرفها فلاسفة الاجتماع :

1- فحسب دوركهايم, التناسق الاجتماعي يتم بفضل إستدخال معايير وقيم الجماعة من طرف الفرد من خلال الضمير الجمعي والرقابة الجماعية.
2- أما بالنسبة لماكس فيبر فإن الرابطة السياسية هي أساس هذا التناسق الاجتماعي وخاصة روابط وعلاقات السيطرة والهيمنة وعلى أهمية دور الدولة التي تحتكر "العنف الشرعي كمفهوم سياسي مؤسس".
3- وأما الثالث فهو يتمثل في أهمية الرابطة الاقتصادية والذي ينتج عنها نوع من التبعية الاقتصادية المتبادلة والتي تنفع الجماعة كجماعة وتنفع أفرادها كأفراد...

هذه الأفكار الأولية توصلنا بشكل مباشر إلى ظاهرة الجنوح كظاهرة نفسية واجتماعية... إن ما يتفق عليه كثير من المحللين هو أن الجنوح وما يسمى أيضا بالجنوح المبالغ فيه هي ظاهرة تمس خاصة الأوساط المهاجرة وعلى الأخص المغاربة رغم غياب الإحصائيات باعتبار أن القانون الفرنسي يمنع مثل هذا النوع من الإحصائيات والدراسات الأناسية **Anthroplogique** والسلالية **Ethnique**. إن هذا التوجه نحو الجنوح لدى هذه الفئة من المهاجرين ليس توجها فطريا بل هناك عوامل نفسية واجتماعية تفسر هذا التوجه الشاذ...إن أول هذه التفسيرات تكمن في أن المهاجر السري مندفع قريب إلى التهور لا يهمه تجاوز القانون ولا يشغل باله احترام قاعدة.. فالهجرة ذاتها عملية غير شرعية فلا مكان بعدها للقانوني والشرعي في فضائه العقلي وضميره الأخلاقي...

خاتمة:

إنّه في هذا المقال، قد حاولنا في الجانب الأول تسليط الضوء على مختلف أبعاد الهجرة غير الشرعية وتعقيداتها التاريخية والاجتماعية والأنثروبولوجية وانعكاساتها الواقعية وما أثارته من ردّات فعل عند المهتمين في مختلف مستوياتهم ومواقعهم، كما حاولنا التركيز على استجلاء الآثار النفسية والعقلية التي تنتجها ظاهرة الهجرة غير الشرعية على أصحابها المتواجدين على الأراضي الفرنسية، وذلك من حيث اعتبار هذه الآثار ردّ فعل للتغيّرات المفاجئة في حياة هذا هؤلاء من جهة، ثمّ رد فعل ناتج عن غياب الشعور بالأمن لديهم من جهة ثانية، وهذا على الرغم من الوسائل الوقائية وأساليب العناية النفسية التي يتمّ توفيرها لهم في المراكز التي تخصص لاستقبالهم و تلك التي يتمّ توفيرها لهم داخل الجمعيات التي تدافع عنهم.

Bibliographie

1- ALMEIDA (de) Zulmino (1975) Les perturbations mentales chez les migrants, L'information Psychiatrique, 51 (31), pp. 225-376.
2- INSTITUT NATIONAL DE LA STATISTIQUE ET DES ÉTUDES ÉCONOMIQUES (1996) Annuaire statistique de la France, 99 (4), pp. 89-95.
3- ASSOCIATION PSYCHIATRIQUE AMERICAINE (1994/1996) DSM-IV, Manuel Diagnostique et Statistique des Troubles Mentaux, Masson, Paris.
4- BEISER M. (1988) Revue des documents de références sur la santé mentale des migrants, Québec : Ministère des Approvisionnements.
5- Bensmaïl, Belkacem, Le sens de la maladie dans la culture maghrébine arabo-islamique in Psychologie médicale, 19, 7, pp. 985 - 987 ; Psychopathologie et migration in Annales médico-psychologiques, 140, 6, pp. 647 - 662
6- Bensmaïl, Belkacem Identité et liens culturels. Double contrainte et double révolte, in B. Bensmaïl, La psychiatrie d'aujourd'hui, éditions OPU (Office des publications universitaires), Alger, 1993, pp. 145 - 154
7- BERNER P. (1967) Psychopathologie des migrations, Encyclopédie Médico-chirurgicale, Psychiatrie, 5, 37880 A10, pp. 1-8.
8- BOURDILLON F. (1991) La santé des populations d'origine étrangère en France, Social Science and Medecine, 32 (11), pp. 1219-1227.
9- CAMILLERI Carmel, VINSENNEAU Geneviève (1996) Psychologie et culture : concepts et méthodes, Armand Colin, Paris.
10- COCHRANE R. (1971) Mental Illness in Immigrants to England and Wales : an analysis of mental hospital admissions, Social Psychiatry, 12 (1), PP. 25-35.
11- DARCOURT G., BENSMAÏL B., BOUCEBCI M., FEUILLADE PH., DOUKI S., MOUSSAOUI D., TOUHAMI M., étude comparative de la symptomatologie de la dépression en France et au Maghreb in La Revue Française de Psychiatrie et de Psychologie Médicale, 7.0 - NO. 68, 9/2003.
12- GOLDBERG ET HUXLEY**) (1992**GOLDBERG DAVID P., HUXLEY P. (1992) Common mental disorders : A bio-social model, tavistock routledge EDS., LONDRES (UK)
13- HITCH Peter J., RACK Philip H. (1980) Mental illness among Polish and Russian refugees in Bradford, British Journal of Psychiatry, 137, pp. 206-211.
14- KINO F.F. (1951) Aliens paranoid reactions, Journal of Mental Science, 97, pp. 589-594.
15- KRUPINSKI J. (1965) Les facteurs influençant la fréquence des troubles mentaux parmi les populations migratrices, Medical Journal of Australia, 52 (7), pp. 269-277.
16- LASRY Jean-Claude, SIGAL John J. (1975) Durée de séjour au pays et santé mentale d'un groupe d'immigrants, Canadian Journal of Behavioral Science, 7 (4), pp. 339-348.
17- LASRY Jean-Claude, SIGAL John J. (1976) Influences sur la santé mentale de la durée de séjour, de l'instruction, du revenu personnel et de l'âge chez un groupe d'immigrants, International Review of Applied Psychology, 25 (3), pp. 215-223.
18- LIEBERMAN M.A. (1979) Social and psychological determinants of adaptation, International Journal of Aging and Human Development, 9 (2), pp. 115-126.
19- MEGAS Hanna (1992) Contribution à l'étude de la psychopathologie de la migration : l'utilisation du GHQ-28 dans le cas d'une population de migrants polonais à Paris, Mémoire de DEA, non publié, Université Paris VIII, UFR de Psychologie Clinique et Psychopathologique.
20- MURPHY H.B.M. (1977) Migration, culture and mental health, Psychological Medicine, 7, pp. 677-684.
21- NATHAN Tobie (1988) Le temps interrompu : Pathologie du deuil et de l'exil, Nouvelle Revue d'Ethnopsychiatrie, 8, pp. 25-42.

22- ODEGAARD O. (1952) The incidence of mental diseases as measured by census investigations versus admission statistics, Psychiatry Qyarterly, 26, 212-218.
23- ORGANISATION MONDIALE DE LA SANTE (1977) La schizophrénie : étude multinationale, Genève.
24- PONTY Jeannine (1985) Une intégration difficile : Les Polonais en France dans le premier XX^{ème} siècle, Revue d'Histoire, 7, pp. 1-8.
25- Sutter J., Scotto J.C. (1984) Problèmes psychopathologiques posés par les populations de migrants dans une agglomération urbaine, Annales Médico-Psychologiques, 142 (4), pp. 522-527
26- TOUSIGNANT Michel (1992) La santé mentale des migrants : analyse de son contexte social et longitudinal, Santé Mentale Québec, 17 (2), pp. 35-45.
27- TOUSIGNANT Michel (1992) Migration and mental health: Some prevention guidelines, International Migration, Special issue, 30, pp. 167-176.
28- WOOD M. (1988) Revue de la littérature sur la santé mentale des migrants, Santé Culture Health, 5 (1), pp. 37-93.